مبادئ الحرب والرسول عليه السلام

أبوالوفا محمود *
فرحت نسيم **

كلمة "حرب " كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب ، والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية . استعملت في القرآن الكريم قليلة كقوله تعالى :

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [1]

وتستعمل كلمة النار للحرب لأن النار لا تبقي شيئا ، وكذلك في قول الشاعر:

نحن حبسنا بني جديلة في نارٍ من الحرب جحمة الضّرَمِ [2]

وكان العرب يشبهونها بالرحى أيضا ، كقول أبي الغول الطهوي :

فوارسَ لا يملّون المنايا إذا دارت رِحى الحرب المنون [3]

وكانوا يكنون كلمة " الشّرّ " للحرب كما في قول قريط بن أنيف :

قومٌ إذا الشّرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووُحدانا [4]

ويستخدمون لها كلمتي " الرَّوع " و" الوَغَى " أيضاً ، فيقول ودّاك المازني :

مَقَاديمُ وصّالون في الروع خَطوَهم بكلّ رقيق الشفرتين يمانِ

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى إذا ما غدتْ في المأزق المتداني [5]

وفي قول قطري بن الفجاءة :

لا يرْكَنَنْ أحدٌ إلى الإحجام يوم الوغى متخوّفاً لحِمامِ [6]

وجاءت في القرآن الكريم كلمة " القتال " مترادفة للحرب مع اقترانها بسبيل الله .

أما الحرب في الاصطلاح فقيل : "هي النزاع المسلّح القائم بين دولتين فأكثر ، تقدم عليه إحداها برضاها وتجبر غيرها عليه ، وهي ذريعة تتوسل بها الدول لتحقيق مآرب سياسية أو اقتصادية أو اقليمية".[7]

ويعرّف العقيد محمد صفا الحرب بأنها :

" حالة القتال الناشب بين دولتين ، لتحقيق مقاصد سياسية بقوّة السلاح . والحرب وسيلة سياسية لا غاية " ... " والحرب آخر سهم وأخطره ، في جعبة التنازع على التوازن . ولا يطلع هذا السهم إلا على كره ، وبعد أن تفشل جميع المحاولات لتسوية النزاع دون اللجوء إلى العنف في ساحات القتال ... ولا تنتهي الحرب إلا بسحق أحد الطرفين ، أو باستسلامه وخضوعه إلى مطالب الطرف الآخر، وتوقفه عن القتال " .[8]

---

* الأستاذ المساعد بمركز الشيخ زايد الإسلامي بجامعة بنجاب ، لاهور ، باكستان
** الأستاذة المساعدة ، قسم الدراسات الإسلامية بجامعة سرجودها ، باكستان

فالحرب صراع مسلّح بين قوّتين أو أكثر ، بسبب خلافات ونزاعات عقائدية أو تاريخية أو اقتصادية أو جغرافية أو أمنيّة .

تبدأ الحرب عادة بإرادة واختيار أحد طرفي النزاع أو برغبة الطرفين معاً . ولكن خبرات الحروب ، وعبر التاريخ ، تؤكد لنا أن قرار شن الحرب ليس بالأمر الهين أو البسيط ، بل هو قرار مصيري يجب أن تعد له العدة ويحسب له ألف حساب .

وبعد الحرب تتوقف المعارك وتسود الهدوء ، وأيا كانت النتيجة ، فالغالب والمغلوب كلاهما يبدأ في تضميد الجراح وحصر الخسائر وإصلاح ما أفسدته الحرب . فهي أقسى ما يتعرض إليه الإنسان ، لكنها أحياناً تكون شراً لابد منه . وتتفاوت درجة تأثر الأفراد والجماعات والدول بحالة الحرب ولكنها في النهاية لابد أن آثارها الواضحة على كل مجالات الحياة .. تترك الحرب آثارها على المنتصرين والمنهزمين في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية بدرجات متفاوتة .

الحرب ضرورة اجتماعية :

إن الإنسان مجموعة من الغرائز وأن القتال إحداها ، وهي غريزة لم تنشأ في طبعه إلا للدفاع ؛ إذ هي وليدة غريزة الخوف فيه ، لكنها قد تطورت مظاهرها فانقلبت من الدفاع إلى الهجوم والاعتداء ، لما لم تجد ما يكبحها من دين أو نظام . وسبب هذا التطور أن الإنسان يتطلع دائما إلى الكمال والسبق والفوز والغلب ، وكثيرا ما يتبع ذلك الحسد والبغضاء لمن يتفوق عليه . ومن هذا التدافع والتقاء الرغبات حول هدف واحد كان النزاع والقتال قديما وحديثا .

فالحرب ضرورة تفرضها طبيعة الاجتماع البشري، وطبيعة التدافع الواقع بين البشر الذي ذكره القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (9)

قال الطرماح بن حكيم :

وما مُنِعتْ دارٌ ولا عزّ أهلها من الناس إلا بالقنا والقنابل (10)

دواعي الحرب :

إن الحرب تنتج من وجود نزاع ما ، وأسباب النزاع والخلاف والاحتكاك كثيرة في أي مكان تجتمع فيه مجموعات مختلفة من الناس . والحرب هي محاولة لحسم هذا النزاع عن طريق القوة . فهناك أهداف مادية أي التنافس حول الموارد المالية ، ومعنوية كالانتقام من إهانة أو اعتداء ، أو إبراز المنعة والهيبة والنفوذ ، أو نصرة المظلوم وغير ذلك .

لقد تزايدت الخلافات والصراعات في التاريخ الحديث ، وتعقدت أسباب الحرب وأساليبها ، وتضاعفت حدة التهديدات واتسع نطاقها ، حتى أصبحنا نعيش في عالم تسوده الحروب وتنتشر في كل مكان، فإنه لاتكاد أن تخمد حرب حتى تنشب أخرى في مكان آخر . ومع أن شعوب العالم أجمع تسعى إلى إيجاد وسيلة لحل المشاكل والخلافات بين الدول بالطرق السليمة إلا أن الحرب مازالت وستظل حقيقة واقعة تتهدد

البشر في كل زمان ومكان . ويجب على كل أمة أن تعد نفسها دائماً للحرب دفاعاً عن أمنها وسلامتها وحماية لممتلكاتها ومصالحها أو لتخليص جزء مغتصب من الوطن . ومهما كانت دوافع الحرب وأسبابها ، فإنها ذات وجهين :

أ. وجه مباشر ، يحمل الدمار والخراب والقتل والمعاناة .

ب. ووجه غير مباشر حيث تكون الحرب سبيل الجهاد وحماية الديار والعقيدة والشرف والكرامة ، وحافزا لدفع التطور العلمي والتقني .

نتائج الحرب :

يستطيع من يتمعن في قراءة تاريخ الحروب والصراعات منذ القدم وحتى عصرنا الحالي ، أن يخلص إلى حقيقة هامة ، وهي أنه في معظم الحروب والنزاعات كانت البيئة الضحية الأولى التي لا يلتفت إليها أي طرف من أطراف الصراع ، هي الحروب التي لم ترحم ولم تدع شيئا أتت عليه . فبعد سكوت المدافع وتوقف آلة الحرب ، وعودة العسكر إلى ثكناتهم وإعلان المنتصر أو المنكسر ، وإسدال الستار على فصل من مسلسل الصراعات الإنسانية التي ليس لها نهاية ، يبدأ الإنسان في النظر من حوله ليرى ما سببته الصراعات وأوهام النصر وأحلام القوة من دمار بيئي .

يعيش الإنسان في صراع مع أخيه الإنسان منذ بدء الخليقة ، ويجتهد في ابتكار أقوى وأشرس الأسلحة ليستخدمها في الحروب والصراعات التي يشنها ، ويسقط في تلك الصراعات العديد من الضحايا ، إلا أن البيئة تعد من أبرز ضحايا الحروب وتزداد الخسائر الفادحة التي تتعرض لها البيئة في حالات الحروب بمدى الخطورة والشراسة التي تتصف بها الأسلحة المستخدمة من قبل الجيوش المتحاربة ، حيث أن تنوع هذه الأسلحة لها مردود سلبي على البيئة . والواقع أن سوء الوضع البيئي بسبب الحروب العسكرية يجتاح المجتمعات الإسلامية بشكل سيء جدا عن بقية مجتمعات العالم ، مثل وجود الألغام والأجسام القابلة للانفجار في البيئة المصرية عام 1942م من مخلفات الحرب العالمية الأولى ، وفي البيئة الأفغانية تأثير مباشر بالعمليات العسكرية التي محت المدن والقرى وأفنت البشر بالهجمات الدرونية ، وتأثيرغير مباشر نتيجة الفوضى التي عانتها البلاد . كما زادت حرب العراق من الدمار الذي لحق بالبيئة ، فقد أدى انقطاع التيار الكهربائي وقلّته إلى توقف عمل مصافي المياه ومجاري التصريف ، وهذا أدى بدوره إلى انتشار الأمراض والأوبئة المزمنة والمعدية وتلوّث البيئة .

الحرب قبل الإسلام وبعده:

بُعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم في عصر لا يعرف عن الحرب سوى الكرّ والفرّ والإقدام والإحجام، ولم تعرف الحرب فيه كفنّ ، ولهذا لم تخضع الحرب عند العرب لمبادئ أو أصول . كما حدث في حرب خزازى ، التي قال فيها السفاح التغلبي :

وليل بتّ أوقد في خزازى هديت كتائباً متحيرات [11]

وفي حرب داحس والغبراء [12] التي دارت بين قبيلتي عبس وذبيان ، واستمرت قرابة الأربعين عاماً ، يقول عنها زهير بن أبي سلمى :

وما الحرب إلا ما علمتم وذُقتُمُ وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ
متى تبعثوها ، تبعثوها ذميمةً وتَضْرَ إذا ضرّيتموها فَتَضْرَمِ
فتعركم عرك الرّحى ، بثفالها وتلقح كِشافاً ثم تَحمل فَتُتْئِمِ
فتُنْتِجْ لكم غلمانَ أشأمَ كلهم كأحمر عادٍ ، ثم ترضِعْ فتَفطِمِ [13]

وفي يوم بُعَاث [14] الذي قال فيه قيس بن الخطيم مفتخراً بانتصار قومه :

أتعف رسماً ، كالطِّراز المُذَهَّب لعَمرَةَ وحشاً غير موقف راكب
وكنت امرءاً لا أبعث الحرب ظالماً فلما أبوا ، أشعلت من كل جانب
قتلناكم يوم الفجار وقبله، ويوم بُعاث كان يوم التغالُب [15]

فالعرب في جاهليتهم كانوا أسوأ مثل في الأمم التي أكلتها الحروب وأفنتها الغارات لأتفه الأسباب . وكم قضت حروبهم على قبائل بأسرها كطسم وجديس . ثم جاء الإسلام والقتال هو الشرعة السائدة في العالم بين الأمم جميعا ، والحروب لا تكاد تنقطع بين الأقوياء في سبيل السيطرة على الضعفاء . ولا تخلو دولة ولا مكان منن نزاع وتناحر لأسباب واهية تافهة وأغراض لا طائل تحتها . فكان من فضل الإسلام أن نظم تلك الغريزة الفطرية في الإنسان وهذبها وحصرها في أضيق حدودها ، وجعل لها أسبابا شريفة وأغراضا سامية ، لا تعدوها ولا تقوم إلا من أجلها .

ولما بدأ الصراع بين جيش الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبين قوات الطاغوت فلم تعد الحرب في الغزوات على تلك الصورة التي كانت عليها قبل بعثته . فقد كان الرسول يفكر بعقلية رجل الحرب ، ذي العقل المدبر والتفكير السليم ، والرأي الصائب ، والنظر البعيد حين أذن له بالقتال . فجعل للقتال أهدافاً معينة، وأغراضاً خاصة، وكانت هذه الأهداف وتلك الأغراض تدور حول معنى واحد ألا وهو الدعوة إلى الهداية والسلام وحمايتها ، ودفع الظلم والعدوان وقطع الفتنة ، وحماية أرض المسلمين وإعطاء الفرصة لهم ليعبدوا ربهم في جوّ من الطمأنينة . فالإسلام أقرّ الحرب على أنها وسيلة لحلّ بعض المشاكل الاجتماعية في وقت كانت القوة الغاشمة هي العائق الوحيد الذي يقف أمام دعوة الحق .

مبادئ الحرب في عهد ألنبوّة:

تميّز العرب قبل الإسلام بالغيرة والمروءة والدفاع عن العرض وعن الأرض ، والذود عن الشرف والمال والحلال. فبعد أن هداهم الله إلى نور اليقين . ودخلو في الإسلام الحنيف أفواجاً ، رسخت الشريعة السمحة هذه المعاني وخلصتها من شوائب الجاهلية، وأمرت المسلمين بألا يبدأوا أبداً بالعدوان ، وألا يتخلّفوا عن صدّه أيضاً. فقد قال الله عزّ وجلّ:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [16] فهذه أول آية نزلت في القتال تأذن للمسلمين بأن يدفعوا عن أنفسهم شرّ الأعداء ، ويقاتلوا الظالمين بعد أن أيد الله رسوله بالمؤمنين ، وألّف بين قلوبهم وقويت شوكتهم . كما أمر المسلمون بأن يردوا الفتنة ويقطعوا دابرها ، فقال تبارك وتعالى :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [17]

فالمراد بكلمة الفتنة أن يتعسف الطغاة والمتجبرون ويشتدوا في اضطهاد المؤمنين ويصادروا حريتهم الدينية حتى يلجئوهم إلى ترك دينهم الذي اعتنقوه عن إيمان واطمئنان . فالآية الكريمة تحدد الغاية التي ينتهي عندها ذلك القتال بتقرير الحرية الدينية خالصة لله غير متأثرة بضغط ولا إرهاب ولا إكراه . فإذا تطهرت الأرض من الفتنة استقام الناس وأمنوا من الفساد.

ولما كان القتال إحدى الغرائز القوية في الإنسان فقد عالجه الإسلام ضمن هذا النطاق العام ، فجعله مقصورا على الدفاع دون الاعتداء ، ورسم له حدودا روعيت فيها الحرمات الإنسانية تمام الرعاية ، ونظمه أسمى تنظيم وأنزله المنزلة التي خلق من أجلها ، وجعله حارس حدوده وسياج دولته .

إذا كان القتال لإعلاء كلمة الحق وفي الحدود المذكورة آنفا فذلك يسمى الجهاد في سبيل الله الذي لا يساويه أي عمل آخر ، ومنزلته عند الله لا تقدر بقدر ، فهو ذروة سنام الإسلام . وقد تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج في كل غزوة يغزوها المسلمون . "وهو الذي بسببه تقوى ركائز الدعوة الإسلامية وينشط أهلها ، وتتعمق في الأرض جذورها ، وهو الذي يجعل أعداء الحق يخضعون لسلطان الله فيتركون المسلمين يؤدون عباداتهم ويقيمون دولتهم ، وينشطون في دعوة الآخرين إلى الله ورسوله . ونحن نعلم جميعا بأن دولة الإسلام في عهد مؤسسها الأول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلّم لم تقم ولم يخضع لها الكفر وأهله إلا عند ما ارتفعت راية الجهاد عند ما فرضه الله عليهم" .[18]

ويدعونا ديننا الحنيف إلى الاستعداد للحرب دفاعاً عن الحق وردّ العدوان وذوداً عن الشرف والكرامة. قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم ﴾[19]

ولا يقلل من احتمالات الدخول في الحرب إلا الإعداد الجيد لها الذي هو أيضاً الوسيلة لتقليل خسائرها وآثارها . فالمراد من القوة العَدَد والعُدَد . فالإسلام دين سلام ، لايدعو إلى الحرب إلا دفاعاً عن الديار والأنفس والعقيدة أو لمناصرة إخوة في الإسلام يتهددهم عدوان باغ . فكم من حرب كانت حافزاً لنهضة الشعوب ، وكم من حرب وحدت الصفوف وارتقت بأفكار المفكرين والباحثين ، واكسبت الأمم الهيبة والقوة والاحترام .

أهداف الحرب وأخلاقيتها :

ليس الهدف من الحرب في الإسلام الغزو والاستعمار والخضوع لغرائز الغضب والحمية الجاهلية ، وإكراه الناس على اعتناق الإسلام . بل الهدف منها أن تكون في سبيل الله أي تضبطها الأخلاق ولا تسيرها الشهوات ، وأن تكون ضد الطغاة والمعتدين ، ومن أجل استنقاذ المستضعفين .

ا– إنسانية الإسلام أثناء الحرب وبعدها :

كانت من طبيعة الحرب في القديم والحديث القسوة والعنف بل الوحشية المسعورة التي تصل إلى درجة الإفناء والتخريب والإبادة والتدمير التام وتسنم بحرص كل فريق من المتحاربين على الوصول إلى النصر ولو ضحى في سبيل ذلك بكل معاني الإنسانية والمثل العليا . فإذا بعث الرسول عليه السلام فوضع للحرب أسسا

من الرحمة والرفق ترتفع بها درجات الإنسانية الكاملة إلى الذروة بما لم يسبقه أو يلحقه فيه قانون ولا عرف . فنهى خلال الحرب النهبى والمثلة وقتل النساء والصبيان وقتل الصبر والغدر . وأمر الرسول عليه السلام المسلمين بعد الحرب أن يواروا جثث القتلى من أعدائهم الألداء وأن لا يتركوها نهب السباع وجوارح الطير ، كما فعلوا في غزوة بدر حيث جمعوهم في القليب .

ب- رسول الرحمة :

قيّد الرسول عليه السلام الحرب بأخلاق الرحمة والسماحة ، وحرّم الاعتداء على الحياة الإنسانية ، والقسوة والإسراف في القتل . انظر إلى تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لقواده وأمراء جيشه لتدرك مدى إنسانية الإسلام أثناء المعارك التي خاضها والتي يخوضها مضطرا في الحديث الذي رواه بريدة عن أبيه قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّرَ أميرا على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ومن معه من المسلمين خيرًا. ثم قال : "اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم . فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن . فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا ".[20]

وانظر إلى المسلمين يوم فتحوا دمشق أخذوا الجزية من أهلها ، ثم بدأ الرومان يغيرون على المسلمين مرةً أخرى ؛ فإذا بخالد بن الوليد يرد أموال الجزية إلى أهل دمشق قائلا لهم : أخذناها منكم لندافع عنكم لكننا الآن لا نستطيع أن ندافع عنكم خذوا أموالكم .

والإسلام جاء ليعمّ وينتشر ويحق الحق ويبطل الباطل ويخرج الناس من عبودية البشر . وما جاء ليستسلم ويرضى باليسير من الحياة . فإن لم يحصل هذا الهدف إلا بالقتال فلا بدّ منه . فمن أهداف الحرب:

1- إحقاق الحق: إذا خاض المسلمون الحرب باعتبار أنها الحلّ الوحيد الذي لا مفرّ منه ، فلابد أن يكون الهدف من الحرب هو إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإعطاء المستضعفين حقوقهم،ودفع الظلم عن المظلومين. أما الحق والعدل فهو ما يُرضي الله ويكون موافقاً لشرع الله ، وأما الباطل والظلم فهو ما يرضي الشيطان،وما يشتهيه الناس من الحروب للسيطرة واستعباد الناس ونهب أموالهم وخيراتهم ، وهو العدوان والطغيان . فقال سبحانه وتعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ [21]

2- ردّ العدوان والفتنة : شرع الإسلام قتال المعتدين لردّ عدوانهم ودفع ظلمهم في قوله تعالى :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ (22)

وفي قوله تعالى :﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (23)

3- تحرير المستعبدين : كما شرع القتال من اجل تحرير المستعبدين والمظلومين وإنقاذ المستضعفين من ظلم المعتدين لا لنصر المتسلطين والمستعمرين كما في قوله تعالى :

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (24)

فكان قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدور حول هذه الدوائر ؛ حمايةً للدين . وإرساءً لقواعد وحدة الأمة ، ودفاعاً عن حدود دولة المسلمين من قوىً كانت تحاول القضاء عليها . فتلك هي الدوافع التي من أجلها فرض الله على المسلمين القتال ، وكانت أساساً دائماً لحروب الرسول صلى الله عليه وسلم . أما الحروب الإسلامية التي خاضتها جيوش المسلمين من بعده في عهد الخلفاء الراشدين ، فكانت إتماماً للمهمة التي بدأها الرسول صلى الله عليه وسلم . وعلى هدى هذه المبادئ السامية تمت الفتوحات الإسلامية التي كان هدفها الوحيد نشر الإسلام وهداية الأنام ، ورفرفت راية التوحيد على جميع أنحاء العالم .

الخطط الحربية:

التجنيد :

التجنيد هو العنصر الأساسي القوي في الوصول إلى نتيجة للفوز والنصر ، وهو القوة الظاهرة التي تتكون من الرجال وأنواع السلاح . ولقد حث الإسلام على الإعداد بكل ما تعنيه كلمة الإعداد من العَدد والعُدد . كان التجنيد تطوعا في بداية الدعوة الإسلامية إلى الجهاد ، ثم تحول إلى الالتزام لجميع المسلمين إلا الأعرج والأعمى ، والمريض أي مصاب بالمرض المزمن ، وصغير السنّ أي أقل من خمسة عشر عاما – فكان الرسول عليه السلام لا يقبل أن يدخل الصغار الحروب – وكذلك يعفى عن أهل الذمة دخول الحرب . وكان عدد الجند في أواخر عهد الرسول عليه السلام ستة وثلاثين ألفاً .

اختيار القصد وإدامته :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يختار قصده بالضبط ويفكر في أقوم طريقة للوصول إليه . ثم يقدر الخطة المناسبة لتحقيقه وإدامته . وخير مثال على ذلك عندما دخل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم مكة المكرمة ، حيث كان قصده القضاء على عبادة الأوثان وتوسيع رقعة الإسلام .

الاستطلاع :

عُرف الاستطلاع منذ عرف الصراع المسلح ذاته . وتفننت دول العالم منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا في أساليب جمع المعلومات والاستفادة منها . وهدفه البحث والحصول على المعلومات السرّية عن جيش العدو والاستفادة منها في أعمال القتال والصراع المسلح . وكان الحصول على المعلومات عن العدو ، من أهم النواحي التي عني بها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، فهو لا يلتقي مع جيش من جيوش أعدائه . إلا بعد أن يدرس حالة الجيش المقابل ، وعدده وتسليحه وبعدها يضع الخطة المناسبة التي تتفق مع ما لديه من قوات ومن معلومات عن هذا الجيش .

ولما لهذا العمل من أهمية ، كان إما أن يقوم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بنفسه بذلك الواجب ، أو أن يرسل من هم موضع ثقته للاستطلاع عن كثب .. ففي بدر ذهب الرسول وبصحبته أبو بكر الصديق يجمعان المعلومات عن قريش ، فلقيا شيخاً يقال له سفيان فسألاه عن قريش ومحمد – منكّراً نفسه – فقال الشيخ : بلغني أن محمداً وصحبه خرجوا يوم كذا .. فهم اليوم بمكان كذا .. وبلغني أن قريشاً خرجت يوم كذا .. فهي الآن بمكان كذا .. ولما كان المكان الذي فيه الرسول صحيحاً ، فقد علم عليه السلام مكان قريش . واستخدمه أيضاً في غزوة الخندق ، فقد أرسل حذيفة بن اليمان عيناً على قريش ، ونهاه أن يحدث حديثاً حتى يعلم علمهم، ويأتيه من أخبارهم ففعل .

كذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى الليالي عيوناً تتلمس الأخبار فوقع في أيديهم غلامان يستسقيان عند بئر في بدر ، فسألهما رسول الله ص قائلا : أخبراني عن قريش . قالا : هم وراء هذا الكثيب . فقال لهما : كم هم ؟ فقالا : لا ندري . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . قال القوم : ما بين السبعمائة والألف . ثم سألهما عمن في النفير من أشراف قريش ، فذكرا له عدداً منهم .

وكان يحب أن يعرف عن عدوه أكبر قدر ممكن من المعلومات ، ويحرص على عدم تسرب معلومات جيشه إلى عدوه ، لذا أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود فتعلمها . وسار الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في غزواته على هذا المنهج ، فتراه في غزوة بدر يأمر أصحابه بأن يقطعوا الأجراس من أعناق الإبل حتى يكون سيرهم خفية ، وفي غزوة الفتح كتم الرسول أمره ، وقال لعائشة :

" جهزيني ولا تعلمنّ بذلك أحداً " . (25)

ولما سار بأصحابه سأله بعضهم عن وجهته ، فأجابه بقوله : " حيث شاء الله " . وكان عليه السلام على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش ، وغطفان في معركة الأحزاب .

التعرّض :

والتعرض يعني المبادأة ، أو الروح الهجومية ، وكان يؤمن عليه السلام بأن التعرض يعطي الثقة التامة ، كما أنه يمنح أعظم الفرص لإحراز النصر ، ولهذا نجده دائماً يتخذ خطة المبادأة والتعرض ، وأنه كان دائماً المفاجئ في الحرب والبادئ بالهجوم . وتعتبر غزوات الرسول تعرضية ما عدا غزوتي أحد والخندق . ولعل عدم محافظة المسلمين على مقرهم في موقعة أحد كان من أهم أسباب هزيمتهم في تلك الموقعة .

الحشد :

منذ نزول الوحي و الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يعمل جاهداً في سبيل نشر الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، مستهدفاً ازدياد قوته من المسلمين وإكمال تحشدهم .. وما هجرته صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة المنورة من وجهة عسكرية إلا الحشد في منطقة واحدة وتحت قيادة واحدة . فأراد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يظهر قوة المسلمين بعد أن أذن الله له بالقتال ، وأعدّ المسلمين نفسيّاً فاستعدّوا مراناً ومعرفة بفنون الرمي والركوب والكرّ والفرّ فكثر عددهم وقويت شوكتهم .

الاقتصاد بالجهد :

إن الاقتصاد بالجهد يدل على الاستخدام المتوازن للقوى والتصرف الحكيم بجميع الموارد لغرض

الحصول على التحشد المؤثر في الزمان والمكان الحاسمين . وقد راعى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم هذا المبدأ في كل غزواته ولم يرسل قوة لواجب إلا وفي كافية لذلك الواجب من كافة الوجوه وخير مثال على ذلك غزوة خيبر وفتح مكة المكرمة .

التعاون :

التعاون كمبدأ من مبادئ الحرب يعتبر حالة ذهنية أكثر من كونه عاملاً ملموساً قابلاً للحساب . ويشمل التعاون التنسيق وقدرة الرؤية لجميع جوانب الموقف بشكل منطقي وموضوعي ، لأن المفتاح الحقيقي للسلوك العسكري يكمن في ديناميكيات المجموعة الإنسانية . وهذا يؤكد على ضرورة اشتراك جميع عناصر الكائن الجماعي للحصول على نتيجة واحدة من خلال تنظيم الجهود وتوحيدها والطاقات البشرية والمادية لضمان تحقيق الاستفادة القصوى منها ، لأن الفشل في تحقيق التعاون يقود إلى نتائج سيئة لا تعد ولا تحصى . لذلك لابد من التأكيد على التعاون من أعلى مستويات التخطيط السياسي حتى أصغر الخطط التكتيكية .

فقد حرص رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على تكامل التعاون بين المسلمين عامة ، وخلال العمليات العسكرية بصفة خاصة . ففي غزوة بدر تتجلى تعاون الرماة مع السيافة ، فقد نضح الرماةُ المشركين بنبالهم وأوقعوا فيهم الخسائر الفادحة ، التي سهلت مهمة هجوم السيافة للقضاء نهائياً على مقاومة قريش . كذلك طبق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم تعاون الفرسان مع المشاة وتعاون الصفوف فيما بينها في جميع غزواته . وهذا الذي يُدرّس الآن في المعاهد العسكرية وهو تعاون المدرعات والمشاة في العمليات التعبوية .

الأمن وسلامة القوات :

لقد حرص الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على حماية قواته في جميع غزواته ، وبذل جهده لمنع العدو من الحصول على المعلومات واستعمل لذلك دوريات الاستطلاع والطلائع ، درءاً لوقوع قواته في جيوب العدو أو استطلاعها . وكان يتلقى من رجال الاستخبارت معلومات دقيقة عن مبلغ قوة جيوش الأحزاب ، فأخذ في اتخاذ الإجراءات الفورية الدفاعية اللازمة . كما كان يحرص على وضع حرس مؤخرة خوفاً من عقره من الخلف . وبهذا أخذ مبدأ الأمن وسلامة القوات .

ومن تعليمات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم التي كان يصدرها للقادة ، السير ليلاً والاختفاء نهاراً ، وسلوك الطرق غير المطروقة ، وفي غزوة حنين نرى أن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم طبق الدروس المستفادة من معركة أحد ، حيث إنه وضع خالد بن الوليد في المقدمة ، وتولى بنفسه قيادة المؤخرة لكي لا يتكرر خطأ الرماة في غزوة أحد ، وبالفعل لو لا هذه الحماية لمؤخرة قواته لحدث ما حدث في أحد .

المفاجأة :

إن الغرض الذي كان يرمي إليه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من استخدام المفاجأة هو ذاته المستخدم في حروب اليوم : فكان الرسول يهدف إلى إضعاف قوة وعزيمة العدو وإرادته ، وذلك بإدخال الخوف في نفوس أفراد العدو حتى يصبحوا غير قادرين على التحمل والمقاومة .

وكان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يحارب بجيش قليل العدد والعدّة ، مع أن التفوّق في العدد والسلاح لدى الجانب الآخر ولكن المعارك انتهت إلى جانبه . ويفهم من هذا أن مفاجآته لم تكن عددية ، بل كانت لأغراض استراتيجية وتكتيكية ، وخير مثل على ذلك حفر الخندق حول المدينة المنورة الذي أذهل قريشاً وتسبب في فشل خطتهم وتشتيت قوتهم وضياع فرص الانتصار من أيديهم وبالتالي فشل حملتهم .

المرونة في الخطة :

توضع خطة الحرب على أسس استراتيجية ، قوامها المقارنة والتقييم بين قوات الفريقين المتخاصمين، وامكاناتهما البشرية وطبيعة الأرض عموماً ، وطرق المواصلات ، والأوضاع الاجتماعية والسياسية . يقول العقيد محمد صفا : " تكون خطة الحرب –دوماً– موضوعاً للدراسة والتقييم والتعديل ، وفقاً لما يطرأ على الموقف القائم، الخاص والعام ، من تبديلات وتغييرات " . (26)

كانت قوات المسلمين تتحرك إلى أهدافها بكفاءة وسرعة ، وتصل إليها في الوقت المناسب ، فتقوم بإحباط نوايا العدو العدوانية ، قبل أن يكمل استعداداته رغم الصعوبات التي تواجه القوات الإسلامية من رداءة الطقس وقلّة الإمكانيات الإدارية . وكان عليه السلام مرناً في وضع خططه وفي تنفيذها ، وتعديلها حسب الظروف الراهنة والموقف الراهن .

الشورى :

كان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يعلم تماماً أن رأي الجماعة مهما كان ، خير من رأي الفرد . وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (27)

ولذا كان يستخلص ممن حوله من الآراء السديدة والأفكار الصحيحة والنظر البعيد والرأي الصائب والخطة السليمة والفكرة المفيدة.خصوصاً إذا كان المسلمون على وشك الدخول في عملية حربية. وقرر عليه السلام في غزوة بدر أن يستشير القوم ويشركهم في أمر سبعين رجلا فطلب رأيهم قائلاً: " أشيروا عليّ فيهم " (28) وكما قال للحباب بن المنذر حين أشار إلى "المنزل" : "يا حباب أشرت بالرأي " . (29)

فالشورى كانت الأساس في حياة الرسول العسكرية . وخير مثال على ذلك غزوة الخندق ، حيث قال سلمان الفارسي : "يا رسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا" . وأخذ الرسول برأيه ونفذت فكرته ونجح المسلمون . وهذا ما يعرف في العصر الحاضر وتعبئتنا الحديثة بتقدير موقف الأركانات لإبداء رأيهم وإعطائه للقائد لوضع الخطة النهائية وتنفيذها .

التطويق :

لقد أدرك الرسول الكريم أهمية التطويق وخطورته ، وعرف أنه وسيلة سريعة للقضاء على جيش العدو ، ولهذا استخدم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم التطويق أو الحصار في غالبية عملياته . ورغم تباعد العصور التي تمت فيها هذه العمليات في زمن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم نرى أن قسماً من القادة العسكريين أخذ بها ، فالألمان استعملوها في الحرب العالمية الثانية " حركات الكماشة " . وقد خدمت أغراضهم أحسن استخدام ، وكذلك استعملوها في عام 1914م لعزل القوات الفرنسية عن البريطانية . أما بالنسبة للرّسول صلّى الله عليه

وسلّم فقد طبقه ضد حصون يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وخيبر ، وكسر شوكة يهود في الجزيرة العربية ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك .

المطاردة :

ويقصد بها ألا يترك فرصة للجيش المنهزم والفاقد لكثير من روحه المعنوية ومن قدرته على حمل السلاح لإعادة تنظيمه ، حتى لا يعود إلى الميدان ثانية ، ويكون شوكة في جانب الجيش المنتصر

ففي غزوة أحد دعا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم المؤمنين إلى طلب العدو ومطاردته ، فلما رأى أبو سفيان جيش المسلمين وقع في روعه أن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يطارده بمدد جديد من المدينة ، فخاف لقاءه وأسرع يعدو إلى مكة المكرمة واستمرت المطاردة حتى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة .

النظام والضبط والربط :

كان العرب قبل الإسلام لا يعرفون النظام ، فرباهم الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن تربية على النظام،وعلّمهم المحافظة على المواعيد ، وعدم التقاعس في الحرب ، وحثهم على الطاعة والضبط والربط واستقامة الصفوف. فقد أنذرهم بأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج كما أنذرهم عن التخلّف بأنه نفاق،وفيه خسارة دينية ودنيوية . وفي قصة هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد بدون عذر شرعي عبرة وقدوة للمسلمين . هم ارتكبوا خطأ في حق دينهم،فابتعد عنهم الناس حتى الزوجات والأولاد ، فانعزلوا لا يأكلون وكادوا أن يهلكوا حتى نزل العفو والمغفرة من الله.وكان إذا بعث سريّةً أو جيشًا ، بعثهم من أول النهار.ويُؤمّر عليهم أميرًا ويأمرهم بطاعته.

إن الضبط والربط لازمان للجيش لزوم الماء والغذاء ، وإن جيشاً لا يسوده النظام لا يقوى على مواجهة عدوه ولا يحقق أي نصر ولا يسود في أي معركة . ففي فتح مكة المكرمة أصدر الرّسول عليه السلام أوامره بعدم القتال وإراقة الدماء . وكان سعد بن عبادة على رأس فرقة أهل المدينة فقال :

" اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ".[30]

فلما سمع به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أقاله وعين مكانه ابنه قيس . و ذلك لخروجه على اوامر الرسول الكريم .

إدامة المعنويات :

تعرف المعنويات بأنها الصفات التي تميز الجيش المدرب عن العصابات ، وبها تظهر الطاعة القائمة على الحب، وتبرز الشجاعة في القتال والصبر على تحمل المشاق .. كما أن صفات الزعامة الحقة هي التي ترفع المعنويات وتديمها ، وهل هناك زعامة خير من زعامة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ وكان يقبل من أعدائه كل ما يصيبه منهم حتى بلغ درجة الإيثار والرحمة فقال :

" اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " .[31]

ولا عجب أن يتحلّى المسلمون بالمعنويات العالية رغم ما كان يلاقي رسول الله من اضطهاد في نشر دعوته وتعذيب لأصحابه كبلال بن رباح وآل ياسر ، ولكن بفضل خلق رسولهم وتعاليم دينهم الحنيف أصبحوا أقوياء في عقيدتهم ، وفي معنوياتهم رغم قلة عددهم وعدتهم . وتمكنوا في فترة وجيزة من الزمن نشر تعاليم دينهم في جميع أنحاء الجزيرة .

أسرى الحرب :

لقد أوضح القرآن حقوق الأسرى ، فبيّن ما ينبغي أن نعاملهم من خلال آية كريمة

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (32)

ففي قوله تعالى أُمر الجندي المسلم بالرفق والرحمة ، فمن أراد أن يدخل الجنّة فعليه أن يرحم الأسير بعد الانتصار عليه ، فربما هذا الأسير قتل أحبّاءه وإخوانه من الجيش . وكم من أسير أسلم في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء بسبب حسن المعاملة .

بخلاف إذا وقع الجندي المسلم أسيراً في أيدى العدو ، فعليه أن يهتم اهتماماً بالغاً في الحفاظ على المعنويات والمعلومات ، ويلتزم بالصمت التام ، وضبط النفس والتحكم في السلوك . لأن خروجه عن صمته لن يفيده في شيء ولن يرضى عنه العدو أو يعطف عليه ، ولن يكون ذلك واقياً له .

الأمور الإدارية :

مهما تكن خطة العمليات التعبوية دقيقة مرنة معقولة فلا تؤتي ثمارها إذا تعذر تنفيذها من الوجهة الإدارية ، ويمكن القول بأن كل خطة مرهونة بإمكانياتها الإدارية .

وقد اهتم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بذلك في كل معاركه ، فتعاون المسلمون على تزويد المجاهدين بالأرزاق والماء والنقل والسلاح ، حيث قام عثمان بن عفان رضي الله عنه بتجهيز جيش العسرة ، وتبرع أبوبكر الصديق رضي الله عنه بجميع ماله ، كما تبرع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله . وذلك لأن الإسلام قرن الجهاد بالأرواح والجهاد بالمال لقوله تعالى :

﴿تُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ . (33)

كما أمر الإسلام بالاستعداد ، وأخذ الأهبة للحرب . قال الله تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ...﴾ (34)

فلفظ القوة عام يشمل كل ما يتقوى به على حرب العدو من آلات الحرب على اختلاف أنواعها وأشكالها . كان خالد بن الوليد قائداً عبقرياً في وضع خطته الإدارية ، فعند ما توجه بجيشه لمساعدة الجيش الإسلامي في معركة اليرموك فأمر الجيش بأن تسقي الإبل حتى ترتوي ، وتحزم أفواهها كي لا تجتر . وكان عندما تحتاج القوات المسلّحة للتزويد بالأكل والشرب ، كانت تذبح الإبل ويستخرج من بطونها الماء وتسقي به الخيول حتى وصولهم إلى ميدان المعركة .

إن واقع الحرب الذي لا يمكن إنكاره أو إهماله يشتمل على قوانين ثابتة يجب وضعها في الاعتبار دائماً، لأنها هي التي تحدد نتائج أي صدام بين قوتين متضادتين . وفي حالة تعادل العوامل النوعية والكمية للقوتين فإن التطبيق الأفضل لمبادئ الحرب واستخدام القوات قد يغير ميزان القوى لصالح الأفضل في الأداء . وتطبيق مبادئ الحرب بشكل سليم وإدراك مفاهيمها بشكل واضح يمنح القائد بعض المزايا ؛ فقد يساعده في سد الخلل في أوضاعه وظروفه المحدودة .

الهوامش

1- سورة المائدة : 64
2- أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، ديوان الحماسة ، 1/ 46 ، الطبعة الأولى ، دار القلم ببيروت
3- المصدر السابق 8/1
4- المصدر نفسه : 4/1
5- المصدر نفسه : 33/1
6- المصدر نفسه : 35/1
7- طبّاره ، عفيف عبد الفتاح ، روح الدين الإسلامي ، ص: 389 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السادسة عشرة .
8- محمد صفا ، أسد الله ، العقيد – الحرب – ص : 11 و97 – دار النفائس ، بيروت – الطبعة الثانية 1981م.
9- سورة الحج : 40
10- ديوان الحماسة : 77/1
11- (إن ملكاً من ملوك اليمن كان قد أسر قوماً من مُضر وربيعة وقضاعة، فبعثت معدّ إليه بوفد من وجوهها تستشفع إطلاق الأسرى فاحتبس الملك قسماً من الوفد ، وطلب من الباقيين دعوة رؤساء معدّ إليه ليأخذ المواثيق عليهم بالطاعة ، وهدد بقتل الرهائن إذا لم تفعل معد ذلك ، وأعلم العائدون قومهم بنية الملك فاجتمعت معد على كليب وائل ، واحتشدت لحرب مُذحج ، والتقى الجمعان فهزمت جموع اليمن هزيمة منكرة . والسفاح التغلبي هو أول من أوقد نارين في هذه المعركة . الموسوعة العربية ، 890/10، www.arab-ency.com)
12- (حرب داحس والغبراء من أطول الحروب التي دارت بين قبيلتي عبس وذبيان ، ودامت حوالي أربعين سنة ، وانتهت بصلح . كان داحس حصانا لقيس بن زهير من عبس ، والغبراء كانت فرسا لحذيفة بن بدر من ذبيان . اتفق قيس وحذيفة إجراء سباق لكن منع داحساً بالغش من بعض ذبيان ، وانكشف الأمر واشتعلت الحرب .
13- الأعلم الشنتمري ، شعر زهير بن أبي سلمى ، ص : 18-19 ، حققه د. فخر الدين قبادة، الطبعة الثانية ، دار القلم العربي بحلب .
14- (وهو من أشهر أيام الخزرج والأوس حيث رجحت كفة الأوس في الحرب ، وأكثرت من قتل الخزرج)
15- أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، ص : 227 ، 229 ، دار صادر ، بيروت .
16- سورة الحج : 39
17- سورة البقرة : 193
18- الجعوان ، محمد بن ناصر ، القتال في الإسلام ، ص : 45 ، الطبعة الأولى 1981م.
19- سورة الأنفال : 60
20- مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، (1357/3، ك : الجهاد ، ب : 2 ،ح : 3) طبع دار إحياء التراث العربي ؛ بيروت . وأحمد بن حنبل ، المسند (240/4) طبع المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الرابعة سنة

1403هـ؛ والحاكم ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري،المستدرك على الصحيحين (541/4) طبع دار الكتب العلمية ، بيروت ، للطبعة الأولى 1411هـ .

21- سورة النساء : 76

22- سورة الحج : 39

23- سورة البقرة : 194

24- سورة النساء : 75

25- ابن أبي شيبة ، المصنف ، ك : المغازي ، 528/8 ، دار الفكر ، بيروت .

26- الحرب ، ص : 15

27- سورة الشورى : 38

28 - الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد ، المعجم الكبير 484/8 ، طبع مكتب العلوم والحكم - الموصل ، الطبعة الثانية سنة 1404هـ

29- المستدرك : 8/ 179

30- صحيح البخاري ، 13 / 176 ، ب : أين ركز النبي ص ، ح : 3944 .

31- مسلم في صحيحه (2006/4-2007 ، ح : 87 /2599) .

32- سورة الإنسان : 8

33- سورة الصف ، الآية : 11

34- سورة الأنفال : 60

الشيخ أحمد رضا خان و ثقافته الأدبية و آثارها

الحافظ محمد ظفر إقبال*

و من الصعب الكتابة باختصار عن شخصية متعددة الجوانب تملأ مكانا واسعا في مجال الدين و الأدب و الحياة القومية، والذى يعنينا هنا هو الشيخ أحمد رضا خان، فقد ولد الشاعر في مدينة بريلي بالهند عام (1279هـ) الموافق عام (1856م)، و أخذ شتى العلوم و الفنون في صدر شبابه، وكان ذا شغف بعلوم الدين على الأخص كما حذق من اللغات العربية و الأردية و الفارسية و الهندية، وكان شاعرا عظيما في أكثر لغات مسلمي شبه القارة. باكستان و الهند . خاصة الأردية، وذلك إلى جانب كونه فقيها صحيح الفكر و دقيق النظر.

قد أعطى الله للشيخ أحمد رضا خان موهبة أدبية و ملكة شعرية خصبة كما تشهد بعلو كعبه في الأدب و اللغة و الشعر ثلاثة دواوين شعرية باللغات الأردية و الفارسية و العربية.

و الحق أنه كان أعظم من عمله، وكان واحدا من أولئك الذين لن ينتهي عملهم أبدا، و قد تمر آلاف السنين قبل ان يولد أحمد رضا خان آخر كما أشاد الدكتور العلامة محمد إقبال بمكانته العلمية، و قال:"إن شبه القارة الهندية من أقصاها إلى أقصاها لم يولد فيها من يشبه الإمام أحمد رضا خان في عبقريته التي لا يجود الزمان على أحد بما يدانيها، و هذا واضح بالوضوح الأتم في فتاواه، إنها شاهد صدق على حدة ذكائه، و عمق تفكيره في تدبر ما يبدي الرأي فيه على أنه الفقيه الحق بالمعنى الأصح الأدق الذي تضلع في شتى علوم الدين على نحو لانصادفه عند غيره ..... و يسعنا قولنا إنه يعد أبا حنيفة في عصرنا الحاضر".[1]

قد ذكرنا فيما سبق أن الشيخ أحمد رضا خان البريلوي كان رجلا عبقريا، فلذا ليس هو رجلا دينيا فحسب بل كان أديبا كبيرا و شاعرا مطبوعا في اللغات العربية و الفارسية و الأردية.

و مما هو جديد بالذكر أن الهند كانت ملتقى الحضارات و الثقافات و الآداب في اللغات العربية و الأردية و الفارسية، و تأثر الشيخ أحمد رضا خان بكل هذه الثقافات و الآداب و اللغات، و أتقن و برع في اللغات العربية و الفارسية و الأردية حتى خلف لنا آثارا أدبية فيها كما يقول الدكتور حازم المصري أثناء حديثه عن اللغات التي برع فيها الشاعر: "و قد رأينا يؤلف و ينظم بهذه اللغات جنبا إلى جنب اللغة الهندية و بمطالعة آثاره الخالدة بهذه اللغات نتبين أن مؤلف هذه الآثار الأدبية على الأخص ما هو إلا أديب شاعر بالفطرة".[2]

و يحدثنا الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم الخفاجي [3] في مقاله عن الشاعر قائلا: "و أتقن الأردية و الفارسية و العربية بل و نظم بها كلها الشعر الرصين إذ لم تقصر جهود الشيخ محمد أحمد رضا خان على خدمة العلوم الإسلامية و التراث الاسلامي فحسب بل كان شاعرا محلقا ينظم الشعر بالأردية و الفارسية و العربية ببلاغة و تميز" [4]

و تدل على خدماته في مجال الاداب مؤلفاته الأدبية و دواوينه الشعرية في اللغات العربية و الفارسية و الأردية و سنتحدث عنها في المباحث القادمة.

---

*المحاضر بالكلية الحكومية I.C.B إسلام آباد؛ الباحث بمرحلة الدكتوراه جامعة فيصل آباد - باكستان

ديوان الإمام أحمد رضا خان الأردي (حدائق بخشش):

كما ذكر فيما سبق أن الله Ψ قد أعطى للشيخ أحمد رضا خان موهبة أدبية و ملكة شعرية خصبة كما تشهد بعلو كعبه في الأدب و اللغة و الشعر ثلاثة دواوين شعرية باللغات الأردية و الفارسية و العربية.

والقول هنا على ديوانه الأردي الموسوم بـ "حدائق بخشش" (حدائق الغفران)، و قد صدرت الطبعة الأولى منه في حياة الشاعر أحمد رضا خان عام (13259 للهجرة الموافق عام (1907) للميلاد، و أعيد طبعه أكثر من مائة مرة، و طبعاته فاخرة تليق بمقام و منزلة صاحبه و بما تضمنه من مدائح الرسول الأكرم بالأصالة و مدائح آل البيت و الصحابة و الأولياءΨ بالتبعية، و يقع هذا الديوان في جزئين كبيرين، و مجموع أبيات الجزئين ألفان و سبعمائة و أحد و ثمانون بيتا، و شعر الديوان في أصله الأردي منظم على الأبجدية و المدائح النبوية التي بين دفتي هذا الديوان مثنويات و قصائد و غزليات و رباعيات و ما يعرف بالفرد و القطعة، و بذلك يكون قد نظم الشاعر في جميع أنماط الشعر الأردي، فمن منظوماته ما يربو على مائة و سبعين بيتا، و إلى جانبها منظومات قصار مما يرشد إلى أنه يقول الشعر منطلقا على سجيته عفو الخاطر، كما أنه يطفر من معنى إلى معنى، و ينتقل بغتة من غرض إلى غرض، و هذا ما جرت به عادة شعراء الأردية كما أنه يذكر في نهاية كل منظومة اسمه الشعري الذي يعرف بالتخلص و هو "رضا".

و عنده خاصة تعبيرية، و هو يكثر من ذكر أسماء المظاهر الطبيعية كالقمر والشمس والنور و الظلام و الضياء و الصباء و المساء و الحديقة و البلبل و الوردة و النسيم و الزهر و شاهق الجبل و غير ذلك، و هذا يدل على قوة طبع الشاعر و مبالاته بالشعر، و هو يكثر حين يمدح الرسول الكريم من ذكر شمائله العطرة و أخلاقه الحسنة و أوصافه المتميزة و ألطافه الكريمة و معجزاته الباهرة كما هو كثير الترديد بذكر شفاعته لنفسه و لأمته و أطيب الصلوات و أزكى التسليمات على النبي الكريم و لذكر بلدته الطيبة المدينة المنورة و روضته الشريفة و أشجارها و جبالها و الرجاء و الأمل في كرمه ، و له ما يعرف عند المتصوفة بالمناجاة و الابتهال، و فيها يرفع الإنسان كف الضراعة إلى الرحمن، و يسأله العفو و حط الخطايا و المعاصي، و ما ينبغي نسيانه و لا تناسيه أن ديوان الشاعر قد ترجم إلى الإنجليزية كما تناوله أهل العلم في باكستان و بنجلاديش و الهند بالشروح و التعليقات و الدراسات.

و عربه نثرا الدكتور حازم محمد أحمد محفوظ المصري [5]، و نقله إلى العربية شعرا الدكتور حسين مجيب المصري[6] ، و سميت هذه الترجمة الوحيدة بـ "صفوة المديح في مدح النبي آل البيت و الصحابة و الأولياء".

و نكتفي برأي الشيخ أحمد مهدي عن مدائح الشيخ أحمد رضا خان و عن مكانة الترجمة العربية لديوانه الأردي "حدائق بخشش": "إنه أعظم و أشهر من نظموا في المدائح النبوية في اللغة الأردية الإسلامية، و كتابه هذا في مدح الرسول و آله و أصحابه و الأولياء ، و هو أشهر كتاب في باكستان و بنجلاديش و الهند إنه مترجم من الشعر الأردي إلى الشعر العربي الرصين، و هي الترجمة الوحيدة له، و مزود بالشروح و التعليقات، و هذا ما يلحقه بالتراث الإسلامي في اللغة العربية، و يجعله كتاب أدب و تاريخ و دين و شرحا لتيارات روحية إسلامية، فهذا الكتاب فراغا شاغرا، و يعد إثراء وفيرا للمكتبة العربية الإسلامية، لقد أنصف مترجماه في إقدامهما على هذا الصنيع لأنهما بذلك أضافا إلى التراث الإسلامي في اللغة العربية أثرا له السيرورة عند قراءة العربية، و أظهراهم على حقيقة هامة هي أن التراث الإسلامي ليس في العربية وحدها بل في العربية و جميع اللغات الشرقية الإسلامية، و المديح في هذا الكتاب

تناوله محمد أحمد رضا القادري –رحمه الله– بكيفية لا عهد للعربي بمثلها، و بذلك عرض الكتاب هذا المديح على نحو يعلم منه القارئ العربي ما لم يك يعلم و ما ينبغي أن يعلم".[7]

و قد طبعت ترجمة ديوانه الأردي "صفوة المديح" في شهر صفر (1422هـ) ومايو (2001م) من دار الهداية للطباعة و النشر و التوزيع بالقاهرة، جمهورية مصر العربية.

و قد كتب الدكتور حازم محمد أحمد محفوظ المصري مقالا حول هذه الترجمة المسماة ب "صفوة المديح": "صفوة المديح للإمام الأديب أحمد رضا القادري عند أهل الدين و العلم في المصر "و تحدث عنه من خلال ثلاث محاور تتضمن ما جاء في الصحافة المصرية من مقالات و عروض لهذه الترجمة، وما نظمه الشعراء العرب، و ما خطه العلماء و الأدباء في المصر حولها، و هي كما يلي:

أولا: صفوة المديح في الصحافة المصرية العربية.

ثانيا: صفوة المديح في عيون الأدباء من الشعراء العرب.

ثالثا: صفوة المديح عند العلماء و الأدباء من الكتاب العرب.[8]

و تقول الأستاذة نبيلة إسحاق محمد [9] عن ديوانه الأردي: "إننا في ديوانه الأردي الموسوم بـ "حدائق بخشش" نراه و قد أفاض و هام معجبا بالعرب و وطنهم، و كل شيئ فيه كما نراه يهيم مادحا سيد العرب و العجم ، فقد فاق مدحه إياه كل حد و كل وصف حتى عرف و لقب بحسان القرن العشرين".[10] كما أرخت طبع صفوة المديح بالبيت الآتي:

"نبيلة" شامت سحائب نور بها قيل سفر لكل العصور

و أول ما يلفتنا من هذا الديوان أنه بجميعه في مدح الرسول و آله و صحبه و الصالحين من أمته، و كان الدافع وراء نظمه إبلاغ رسالته السامية القائمة على تكريم و تعظيم النبي الكريم و آل بيته الأطهار و صحابته الكرام و الصالحين و إظهار الحب الصادق للرسول الأكرم.

و الحق أن كل ما قال الشاعر في مدح سيد الكونين نتيجة حبه العميق الصميم له كما يحدثنا الأستاذ الدكتور ممتاز أحمد السديدي [11] عن مكانته في الأدب الأردي و أسلوبه المتميز قائلا: "هكذا دام شاعرنا ينظم شعره باللغة الأردية حتى نال منزلة رفيعة في آفاق الأدب، و كان شاعرنا فريدا في أسلوب نظمه للمدائح النبوية، فيتجلى من أسلوبه مدى هيامه و عشقه للحبيب المصطفى "[12] كما يحدثنا الأستاذ الدكتور القطب يوسف زيد [13] من أساتذة جامعة الأزهر الشريف عن موهبة الشاعر الشعرية قائلا: "و أنه في معظم ما صدر عنه يوجه موهبته الشعرية في مدح من هو أحق بالمدح على وجه البسيطة، و أن شعره في هذا المجال يتسم بالصدق العاطفي و الصفاء القلبي، و يعلن عن الحب الصميم لسيد المرسلين ".[14]

يقول الدكتور السيد رفيع الدين إشفاق عن ديوان الشاعر أحمد رضا خان و مكانته في المدائح النبوية الأردية: "إن ديوان الشيخ أحمد رضا خان في المدائح النبوية الأردية مفعم بالحب الصادق و العاطفة الإيمانية القلبية من مبتدئه إلى منتهاه، و ليس ببعيد أن يتخذه رجل متدين وسيلة للنجاة عن النار يوم القيامة".[15] و يحدثنا أيضا عن

القصيدة التي قالها الشاعر في المديح النبوي و هي تشتمل على مصطلحات الهيئة و النجوم قائلا: "إن قصيدة شاعرنا هذه بتمامها مملوءة باستعارات رائعة، و لم يوجد مثلها في جميع الشعر الأردي".[16]

و يقول الشيخ عبد الحكيم شرف القادري [17] عن عاطفة الحب للنبى الكريم في قلب الشيخ أحمد رضا خان: "و من ميزات الإمام أحمد رضا خان –رحمه الله تعالى– رسوخه في الإيمان و محبة الله و رسوله سارية في أعماق قلبه، و حاوية على مشاعره، و هذه المحبة الإيمانية تلمع من كل سطر في تصانيفه نظما و نثرا، و في ديوانه الأردي الموسوم بـ "حدائق بخشش" قصيدة سلامية و مطلعها:

مصطفیٰ جان رحمت پہ لاکھوں سلام
شمع بزم ہدایت پہ لاکھوں سلام[18]

و نقله الدكتور حسين مجيب المصري إلى الشعر العربي:

سلام على صفوة الأنبياء نبي الهدى رحمة للسماء
عليه الصلاة عليه السلام[19]

و يقول الشيخ كوثر النيازي عن هذه القصيدة السلامية: "أستطيع أن أقول بدون تردد إننا لو وضعنا مدائح جميع اللغات و الأزمنة في جانب واحد و قصيدة الإمام أحمد رضا خان في جانب آخر من الميزان لرجحت كفتها" ثم يقول بعد أسطر:"و من المؤسف أن هذه القصيدة السلامية لم تلق ما يجب أن تلقى من اهتمام الباحثين و إلا فإن من الممكن إنجاز بحوث كثيرة في شرح كل بيت من أبيات هذه القصيدة المباركة"[20] و يقول الدكتور طلحة الرضوي برق (الهند) عن ديوانه و مدائحه: "و إن ديوان الشيخ أحمد رضا خان مجموعة من المدائح النبوية الأردية و ثروة غنية تفتخر بها المدائح النبوية الأردية، و إن مدائح الشيخ أحمد رضا خان جامعة لجميع محاسن شعرية من حسن التركيب و قدرة البيان و اللغة".[21] و"إن جميع الأوصاف الشعرية للأردية الكلاسيكية التي يفتخر بها أهل اللغة كانت موجودة في مدائحه"[22] و"لو رفع لوائه في مجال اللغة بجميع مقدراته لم يكن له ند و مزاحم في ذلك، و لكنه ركز تماما على حفاظ الدين القويم و الشريعة المحمدية".[23]

و قد وجدت في ديوانه الأردي (حدائق بخشش) صنائع و بدائع كثيرة، ولا تعد و لا تحصى كما جرت على ذلك عادة شعراء الأعاجم، و وجدت في ديوانه الأردي ألفاظ و كلمات بالعربية و الفارسية على العموم، و لكننا نقدر مقدرة بيانه في النعت النبوي كثير الترديد و اللسان الذي احتوى على لغات أربعة (عربية و فارسية و هندية و أردية) و مطلعها كما يأتي:

لم يأت نظيرك في نظر مثل تو نہ شد پیدا جانا
جگ راج کو تاج تورے سر سو ہے تجھ کو شہ دوسرا جانا[24]
نظيرك في الكون ما إن وجد و بين الأناسى ما إن ولد
بدنيا و أخرى لأنت الملك و تاج على الرأس ما تمتلك[25]

و رغم كونه في اللغات المختلفة كثير الشهرة و التلقي بين الناس، و كثير الترديد في حفلات النعت النبوي و المولد النبوي من حب و شغف.[26]

و نحن نجد في ديوانه الأردي كثرة الأمثال و المحاورات كما كتب الأستاذ الدكتور صابر السنبهلي[27] ثلاث مقالات[28]، واختار فيها بعض الأبيات التي تدل على أن شاعرنا قد استخدم محاورات[29] كثيرة في ديوانه الأردي "حدائق بخشش" و لكن الأمثال لم توجد في ديوانه إلا قليلا، و ذكر الدكتور صابر السنبهلي أمثلة لمحاورات حسب الترتيب الهجائي.[30] و نجد في مدائحه نماذج للألفاظ الرائعة و التراكيب المتناسقة و الموسيقى.[31]

و قد كتب المحقق العظيم و الباحث الممتاز السيد شمس البريلوي مقالا حول محاسن خارجية لمدائحه الأردية، و وضح داعواه بأمثلة من أبيات النعت النبوي (المديح النبوي) من ديوانه الأردي "حدائق بخشش" و لو ندرس خدمات شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان في باب المديح النبوي دراسة نقدية فنقول هذا بدون أن نخاف ردها بأن عمله و حظه و نصيبه في تطوير المديح النبوي الأردي و رقيه أكبر من شعراء المعاصرين، و لم يأت شاعر بانعكاسات التي أتى بها شاعرنا في المديح النبوي الشريف، و ما كتبت عنه مدائح و منظومات رفيعة و رائعة فحسب بل شكلت مدرسة النعت النبوي تحت تأثيره، و شعره في المديح النبوي يحتل مكانة حركة النعت النبوي ذي إيقاع كبير.[32]

و الحق أن ديوانه الأردي (حدائق بخشش) أشهر دواوين المديح النبوي الأردي حتى يعد شاعرنا الإمام أحمد رضا خان قدوة و أميرا لشعراء المديح النبوي الأردي، و كانت له مكانة مرموقة في تاريخ الشعر الأردي كما هو يقول تحدثا بنعمة الله :

ملک سخن کی شاہی تم کو رضا مسلم — جس سمت آگئے ہو سکے بٹھا دیئے ہیں[33]

(رضا) ملك شعر أراه لك — و في كل فن نرى نظمك[34]

ديوان الإمام أحمد رضا خان العربي (بساتين الغفران):

لا شك أن الإمام أحمد رضا خان كانت له صلة قوية بلغة الرسول لأنه نشأ و ترعرع في بيت علم و فضل، و تعلم اللغة العربية على يدي والده و جده، و هما عالمين كبيرين، واهتما بدراسة اللغة العربية و نشرهما، و قد ترك هذا أكثر وضوحا على ثقافة الإمام أحمد رضا خان و إلمامه بلغة القرآن الكريم.

و "كان شغفه البالغ باللغة العربية منذ صباه، و لم يكد يبلغ الرابع عشر من عمره حتى جعل يتكلم بالعربية، و يصنف الكتب فيها، و يزيد ما ألف من الكتب و التعليقات و الحواشي في هذه اللغة على مائتين".[35]

و عند ما حاول الدكتور أحمد إدريس المصري لجهود علماء شبه القارة الهندية في نشر اللغة العربية و آدابها فذهب إلى أن الشاعر أحمد رضا خان البريلوي أكثرهم تأليفا باللغة العربية حيث قال في مقاله "الأدب العربي في شبه القارة الهندية": "فالأمير النواب صديق حسن القنوجي المتوفي (1308هـ) له ستة و خمسون كتابا باللغة العربية، و للشيخ أحمد رضا خان البريلوي المتوفي في (1340هـ) ثلاثمائة مصنف كما للشيخ عبد الحي بن عبد الحليم اللهكنوي المتوفي (1304هـ) ستة و ثمانون، و للشيخ أشرف علي التهانوي المتوفى في سنة (1362هـ) ثلاثة عشر كتابا".[36]

و إن موسوعته الفقهية "العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية" تحتوي على مئات من الفتاوى باللغة العربية، و "لما طالع بعضها الشيخ إسماعيل بن خليل أمين مكتبة الحرم الشريف بمكة المكرمة و الشيخ عبد الفتاح أبو غده الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة محمد بن سعود الإسلامية أخذتهما الحيرة و الإستعجاب".[37]

و هكذا نالت مؤلفاته الثلاثة التي ألفها بالحجاز باللغة العربية إعجاب مئات من علماء الحرمين الشريفين، و هي كما يلي:

1. الدولة المكية بالمادة الغيبية.
2. كفل الفقيه الفاهم في أحكام قرطاس الدراهم.
3. حسام الحرمين على منحر الكفر و المين، و بالإضافة إلى ذلك أن أحمد رضا خان قد صنف خمسين بحثا قيما و مقالا علميا باللغة العربية في العلوم الحديثة.[38]

و عند ما نطالع مؤلفاته النثرية من مدى تمكنه التام باللغة العربية و آدابها لأن أسلوب الشاعر في النثر الفني قد بلغ قمة الفصاحة و البلاغة كما نظم الشيخ المكي محمد علي[39] قصيدة من ست و خمسين بيتا في مدح الشاعر الشيخ أحمد رضا خان، و نكتفي هنا بذكر بيتين منها:

ذا خبرة مولى المعارف و الهدى رب البلاغة من به الدنيا زهت

ذا عفة ذا حرمة عند الملا ذا فطنة منها العلوم تفجرت[40]

و من حبه الغزير بلغة القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف بأنه اختار عنوانا عربيا لأكثر مؤلفاته غير العربية، و يدل على سعة إطلاعه على المعاجم وتمكنه التام بكل ما يتعلق باللغة العربية ما قال عن فعل "طف" الذي ذكره العلامة محمد أمين بن عابدين الشامي: "لم أر هذا الفعل و لا مصدره في الصحاح و لا الصراح و لا المختار و لا تاج العروس و لا المفردات و لا النهاية و لا الدر المنثور و لا مجمع البحار و لا المصباح و إنما في القاموس: طف المكوك و الإناء و طفه محركة و طفافه و يكسر مملأ أحباره (قال في الصراح: أي جوانبه) أو ما بقي فيه بعد مسح رأسه أو هو جمامه أو ملؤه إلى أنه قال: و إنا طفان بلغ الكيل طفافه و في تاج العروس هذا: طف الميكال و طفافه" إذا قارب ملأه"[41] و هذا منه إن دل على شيئ فإنما يدل على سعة إطلاعه على المعاجم و كتب الحديث، فقد ذكر عشرة منها من أجل تحقيق لفظ واحد.

و كذلك يدل على براعته في فن الشعر العربي ومعرفته بالفنون العربية ديوانه العربي المسمى "بساتين الغفران" الذي قام بجمعه و تحقيقه الأستاذ الدكتور حازم المصري[42] و يحدثنا الدكتور إبراهيم محمد إبراهيم[43] عن مكانته في الشعر العربي قائلا: "فإن شعره يؤهله لأن يكون في طليعة شعراء العربية في شبه القارة".[44]

و كذلك يوافقه في الرأي الدكتور حسين مجيب المصري إذ يقول: "فهذا العالم النحرير و الأديب و الشاعر الكبير كان له قلم في اللغة العربية و الفارسية و الأردية كما كانت له عبقرية في نظم الشعر بهذه اللغات، و يعنينا في هذا المقام على الخصوص أن الشيخ أحمد رضا خان كان عالما باللغة العربية علما قلما تيسر لغيره في عصره و بيئته كما كان ذا شغف بلغة القرآن، و كانت لسانه في تأليف أهم كتبه التي أخرجها و ما أكثرها".[45]

و قال الدكتور حامد على خان عن الشاعر: "كان الشيخ أحمد رضا خان شاعرا موهوبا في اللغة العربية، و قد أكرمه الله بملكة شعرية رصينة، و لا نجد له من معاصريه نظيرا فيما نظم و كتب بالعربية، و قد أثنى علماء العرب على طول باعه في اللغة العربية و آدابها، فكان أديبا و شاعرا كبيرا في النظم والنثر العربيين".[46]

و الحق ما قال الدكتور محمد حسين البريلوي عن خدمات الشيخ أحمد رضا خان في نشر اللغةالعربية و آدابها: "تعد شخصية الشيخ أحمد رضا خان شخصية غريبة فريدة في القرن الرابع عشر الهجري، و لا يوجد في الهند من يماثله في نواحي حياته العلمية، و لا يمكن لأحد أن ينكر خدماته الجليلة في نشر اللغة العربية و آدابها في شبه القارة الهندية ..... و إن براعته في اللغة العربية و آدابها لم تكن مقصورة على النثر العربي بل تتجاوز إلى قرض الشعر بلغة الضاد، فكان يتميز بوصفه شاعرا موهوبا في النظم باللغة العربية، فأبدع و أجاد في نظم الشعر بها كما دارت عليه الحال في اللغتين الفارسية و الأردية".[47]

و جدير بالذكر أن الأستاذ الدكتور ممتاز أحمد السديدي قدم رسالة تخصص الماجستير في كلية الدراسات الإسلامية و العربية عام (1999م) بجامعة الأزهر تحت إشراف فضيلة الدكتور رزق مرسي أبي العباس علي[48] التي عنوانها: "الشيخ أحمد رضا خان البريلوي الهندي شاعرا عربيا".[49]

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان كان قد رتب ديوانه الأردي في حياته في جزئين، و قد صدر الجز الأول و الثاني في مجلد تحت عنوان حدائق بخشش (حدائق الغفران)، و ذلك في العام الخامس و العشرين من القرن الرابع عشر الهجري الموافق للعام السابع من القرن العشرين الميلادي، و لكنه لم يقم و لم يفكر في ترتيب ديوانه العربي، و كذلك ديوانه الفارسي، و اكتفى بما تضمنه حدائق بخشش من بعض المنظومات العربية و الفارسية إلا أن بعض مؤلفاته قد توجت بذكر بعض قصائده، و قد ذكرها ضمن مؤلفاته بمناسبة الكلام مخافة عدم قدرته على جمع الديوان العربي و الفارسي في حياته، و هذا ما حدث بالفعل.

و مما تجدر الإشارة إلى أن الأدباء و العلماء بشبه القارة الباكستانية الهندية اهتموا بالمنظومات العربية التي نظمها شاعرنا، و بدأ الإهتمام بشعره في أواخر حياته و بعد رحيله و إلى يومنا هذا عدد منهم على وضع إحصائية عدد الأبيات العربية لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بل استمر هذا الوضع منذ أواخر حياة شاعرنا و بعد رحيله إلى العام الخامس و التسعين من القرن العشرين الميلادي، و حين قدم باكستان الأستاذ حازم محمد أحمد عبد الكريم المحفوظ –أحد أبناء الأزهر الشريف–، و بعد ما علم بعدم إقدام أحد من الأدباء و العلماء على التصدى إلى جمع و ترتيب و تحقيق و إصدار المجموعة الشعرية العربية لشاعرنا عكف على إنجاز هذا العمل، و عن بداية مطالعته لمنظومات شاعرنا يقول[50] كما يقول عن بداية تصديه لإنجاز هذا العمل "و شاءت الأقدار أن أقدم إلى جمهورية باكستان الإسلامية أستاذا زائرا بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بنجاب بمدينة لاهور –قلب باكستان– في الخامس من شهر يناير عام خمسة و تسعين بعد تسع مائة و الألف للميلاد، و بعد أن عرفت أنه لم يقم أحد على جمع ديوان الشيخ أحمد رضا خان (جمعا يحيط بسائر نتاجه الشعري) حتى ذلك الوقت فعقدت العزم على المضي قدما على القيام بهذا العمل، فقد توفرت لي الوسائل في باكستان حيث يوجد أغلب مصنفات الشيخ أحمد رضا خان التي تحتوي على العديد مما نظمه باللغة العربية، و قد رأيت مدى رغبة علماء أهل السنة و الجماعة هنا في مدينة لاهور

(بجمهورية باكستان الإسلامية) و تشجيعهم لي للقيام بهذا العمل فعكفت على جمع أشعار الشيخ أحمد رضا خان عن المؤلفات المطبوعة والمخطوطات لشاعرنا و التي اعتمد عليها في جمع و ترتيب هذا الديوان العربي يقول[51] "قمت بالإعتماد في ترتيب هذا الديوان على مؤلفات الشيخ أحمد رضا خان التي وصلت إليها".

أما عن المنهج العلمي الذي اتبعه مرتب الديوان فيقول[52]:

"وكان منهجي في جمع و تحقيق أشعار هذا الديوان بأنني لم أكتف بقراءة و جمع ما أعثر عليه من أشعار من مخطوط أو مصدر أو مرجع بل عند ماكنت أجد نفس هذه الأشعار بمصدر آخر كنت أقوم بمطابقتها بما جمعته، و عند ما أجد اختلافات في بعض ألفاظ بعض أبيات أو إبدال كلمة موضع كلمة أخرى تقديما أو تأخيرا قمت بالإشارة إلى ذلك بالحاشية تحريا للدقة، و أيضا قمت بالتعليق على كل قصيدة و مرثية و قطعة و رباعية و فرد أوردته بمتن هذا الديوان، و قمت بوضع عناوين لكل القصائد و المراثي و القطع و الأفراد (المراد بالفرد البيت الواحد و كذلك الأفراد المراد بها عدة أبيات كل منها في مجاله) و التواريخ و غيرها لتسهيل معرفة و فهم مضمونها، و كذلك أوردت الهوامش المناسبة و السنة التي نظمت فيها إن وجدت".

و هذا الديوان الذي بين أيدينا الآن قام محقق الديوان باختيار عنوان له هو بساتين الغفران و يقع هذا الديوان في ثلاثمائة و خمسين صفحة مقاس (20×30 سم)، و يبدأ هذا الديوان بتمهيد في ثمان صفحات تحت عنوان التعريف بالإمام محمد أحمد رضا خان، تحدث المرتب فيه عن حياة و أعمال و مصنفات و عقيدة الشيخ أحمد رضا خان، و بعده تقديم بقلم الشيخ محمد عبد الحكيم شرف القادري –الأستاذ سابقا بالجامعة النظامية الرضوية بمدينة لاهور، و مراجع هذا الديوان– استغرق هذا التقديم اثنتي عشرة صفحة، تحدث فيها عن الشيخ أحمد رضا خان وموهبته الأدبية في اللغات العربية و الفارسية والأردية كما تحدث فيها عن بساتين الغفران و المجهود الذي بذله المرتب من أجل إتمامه، و تحدث كذلك فيه عن السيرة الذاتية و العلمية و الأدبية لمرتب هذا الديوان[53] ، أما عن هذا الديوان فيقول الجامع و المحقق الذي جمعه و رتبه و ضبطه و حققه و مهد و قدم له و أردفه بملحق و قمت بتقسيم هذا الديوان "بساتين الغفران" إلى:

أولا: القصائد.

ثانيا: المراثي و القطع.

ثالثا: الرباعيات.

رابعا: الأفراد.

خامسا: أشعار عربية ضمن منظومات أردية أو فارسية.

سادسا: أشعار عربية تتخللها كلمات أو حروف أعجمية.

سابعا: التواريخ.

و بعد ذلك أردف هذا المتن بملحق يقول عنه المرتب[54]: "ثم أردفت هذا المتن بملحق موسوم بـ "أثر اللغة العربية في ديوان حدائق بخشش" و يتضمن الآتي:

أولا: نماذج من أشعاره أول شطرة فيها باللغة العربية.

ثانيا: نماذج من أشعاره ثاني شطرة فيها باللغة العربية.

ثالثا: نماذج من أشعار تتخللها عبارات باللغة العربية (ما عرف في علم البديع بالاقتباس) من آيات القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف.

رابعا: نماذج من أشعار تتخللها عبارات باللغة العربية.

و بعد ذلك نماذج من المخطوطات و تليها قائمة بالمصادر و المراجع ثم الفهرس الذي يتضمن موضوعات الديوان.

و على الرغم هذا المجهود الكبير الذي بذله المرتب من أجل إتمام هذا العمل إلا أننا نجده يشير أن هناك أشعارا لشاعرنا لم يدرجها في هذا الديوان، و عن السبب وراء ذلك يقول المرتب[55]: "و لا بد لي أن أشيرها إلى أن هناك بعض أشعار التبس علي الأمر فيها، أ هي للشيخ أحمد رضا خان أم لغيره، و هذه الأشعار توجد بين مصنفاته و مصنفات غيره فتحريا للدقة لم أقدم على إدراجها في متن هذا الديوان ... و قد وقع هذا اللبس لأن الشيخ أحمد رضا خان أوردها هو و غيره و لم يذكر أهي له أم لغيره".

كما أشاعر المرتب إلى أن هناك أشعارا أخرى لشاعرنا و لم يتمكن من جمعها فيقول[56]: "و أيضا تحريا للأمانة العلمية لا بد لي أن أشير إلى أن هناك بعض أشعاره لم أتمكن من جمعها على الرغم من أنني بذلت مجهودا كبيرا في البحث عنها بعديد من المكتبات الخاصة و العامة بمدينة لاهور، و قمت بمراسلة العديد من العلماء الأفاضل من أجل السؤال عن إمكانية وجودها، و من أمثال ذلك ما أشار إليه مولانا محمود أحمد القادري في تأليفه "أحد عشر بيتا للإمام أحمد رضا" على المنظومة التي نظمها الشيخ أحمد رضا خان في الرد على المرزا غلام أحمد القادياني فقمت بالبحث عن هذه القصيدة، و لكن دون جدوي و لو وفقت في المستقبل القريب بإذن الله في العثور عليها و على غيرها من أشعار شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أقوم بإضافتها لهذا الديوان في طبعته الثانية.

و يشتمل ديوانه العربي "بساتين الغفران" على ثلاث قصائد طويلة و غير ذالك من المقطوعات و الرباعيات و الأفراد والقصيدة عنده تمثل الوحدة الموضوعية يعني لها بداية و لها نهاية، و ما بين ذلك حاول شاعرنا أن يتحدث عن الموضوع الذي أراده فالقصيدة الأولى عبارة عن اثنين و سبعين بيتا من صفحة ثمانية و خمسين إلى صفحة تسعة و ستين، و مطلع هذه القصيدة كالآتي:

الحمد للمتوحد بجلاله المتفرد

و صلاة مولانا على خير الأنام محمد[57]

و تنتهي هذه القصيدة بالصلاة و السلام على خير الأنام، و قد حاول شاعرنا أن يسجل اسمه في نهاية القصيدة دون ملل و لا تكلف فقال سائلا ربه:

و أدم صلاتك و السلام على الحبيب الأجود

و اجعل بها أحمد رضا عبدا بحرز السيد[58]

أما القصيدة الثانية فتتمثل في مائة و ثلاثة و أربعين بيتا –من صفحة إثنين و سبعين إلى صفحة ثمانية و ثمانين– تستهل هذه القصيدة بالغزل حيث يقول شاعرنا:

رن الحمام على شجون البان ياما أميلح ذكر بيض البان

تبكى دما و تقول في أسجاعها الله يضحك سن من أبكاني[59]

أما نهاية هذه القصيدة فهي أيضا بالصلاة و السلام على الأنام، و ذلك بعد انتقاله من غرض إلى آخر يقول شاعرنا:

صلى عليك الله يا فرد العلى ما أطرب الورقاء بالإلحان

صلى عليك الله يا مولاي ما، رن الحمام على شجون البان[60]

أما القصيدة الثالثة التي سماها شاعرنا بـ "آمال الأبرار و آلام الأشرار" فقد نظمها في الرد على بعض الأفكار السائدة المعاصرة له، و تقع هذه القصيدة في مائة و أربعة و سبعين بيتا –من صفحة مائة و ستة عشر إلى صفحة مائة و ستة و عشرين– تستهل هذه القصيدة بذم الدنيا حيث يقول شاعرنا في مطلع القصيدة:

هي الدنيا تبيد و لا تفيد فأف لمن يريد و من يرود

نفوس الجهل تائقة إليها فملتمس و آخر مستزيد[61]

لاحظت أن القصيدة الأولى في المدح من الكامل المجزوء و الثانية أيضا في المدح من بحر الكامل التام أما الثالثة فهي من بحر الوافر.فبدأ شاعرنا قصيدته الأولى بالحمد لله تعالى و الثانية بالغزل و الثالثة بذم الدنيا فهذه القصائد الثلاثة متنوعة المقدمات، و هذا ما يدل على القدرة الفائقة عند الشاعر وتنوع النفس عنده، و هو في نظره قيمة واحدة بدليل أنه نظم القصائد الثلاثة، و حاول أن يتجنب الملل، و يستعرض قوته الشعرية، و لا شك أنه بين المقدمات الثلاث رابطة نفسية فإنه يحمد ربه في الأولى ثم مروحا عن نفسه بالغزل في الثانية ثم متبرما من الدنيا و من فيها من أصحاب الأفكار الزائغة لذلك أقدم على ذمها في القصيدة الثالثة فكأنه يريد أن يقول: "إن الغزل ليس قصدي و إنما القصد الشعر الذي يروح عن النفس و يذهب بعض ما فيها فلجأ إلى حيث الطرب ألا و هو مجال الغزل و في هذا يقول:.

ما لي و للغزل المهيج فلا أكن غزلا و لم أر مرتع الغزلان

ما لي و للإهوا إلى مهوى الهوى أفلي غناء في غناء غوان

ما كان هذا ديدني لكنه تشبيب شعر لادد الشبان

إذ ما ددمنى و لا أنا من دد إذ جئت أمدح رحلة لأواني[62]

فهذه المقدمات الثلاثة بينهن ارتباط نفسي، هذا و أرى أن هناك ارتباطا بين هذه القصائد من جهة أخرى، فإنه صاغ القصيدة الأولى و الثانية في مدح مولانا فضل الرسول البدايوني.

هذا و المقطوعات تتمثل في إحدى و أربعين مقطوعة بما فيها الكبيرة و الصغيرة حجما في الأغراض الشعرية المختلفة من المدح و الرثاء و الهجاء و التاريخ، أما عدد الرباعيات فهو لا يتجاوز خمسا، أما الأفراد من الأبيات فهي ثلاثون بيتا، و المجموع يساوي سبعمائة و اثنين و تسعين بيتا، والناظر إلى هذا الإحصاء يجد أنه أقل مما